العمارة الدينية الأثرية بمنطقة الزاب ومتطلبات توظيفها في تنمية السياحة الدينية

أ.د/ صالح بن قربة
جامعة الجزائر

أ/ فتيحة شلـــوق
جامعة بسكرة

الملخص :

العمارة الإسلامية متنوعة منها: المدنية كالقصور والمساكن والمصانع، والعسكرية كالأربطة والأسوار والحصون والأبراج والقلاع، والدينية كالمساجد والزوايا والأضرحة...، وفي مقالنا هذا نحاول التعريف بمختلف معالم العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب ومتطلبات توظيفها في تنمية السياحة الدينية، على اعتبار أن للسياحة دور فعال في استغلال أمثل للموارد المتاحة الطبيعية منها والبشرية والحضارية والتاريخية وبالتالي المساهمة في تسويد المصفوفة القطاعية بما يوفر مناصب شغل وخلق فرص مدرة للدخل وتحسين ميزان المدفوعات، فضلا عن المساهمة في تحسين أسلوب ونمط الحياة الاجتماعية والثقافية لمختلف أفراد المجتمع.

Abstract :

Islamic architecture is varied, (Civil construction: Palaces, houses and factories, and military: Rabats, fences, forts, towers, castles, and religious: mosques, zaouïas, Shrines…), in this article we try definition of various websites, Islamic religious architecture archaeological in the region of the Zab, and requirements employed in the development of religious tourism, considering that For Tourism active role in the optimal exploitation of available resources: natural, human, cultural and historical, therefore Contribute to blacken the sectorial matrix to provide jobs and create opportunities of income-generating and improve the balance of payments and the style and pattern of social and cultural life of the various members of the community.

On the basis that to provide jobs and create income-generating opportunities and improve the balance of payments, as well as contribute to improving the style and pattern of social and cultural life of the various members of the community.

ـ مقـــدمـــة

السياحة في عالم اليوم لم تعد قطاعا بالغ الأهمية أو قطاعا ضمن قائمة أهم القطاعات لتأثيرها البارز إقتصاديا وإجتماعيا وثقافيا وبيئيا؛ بل تعدت ذلك وأصبحت بكل المقاييس أكبر وأهم الصناعات؛ فهي ظاهرة حضارية واجتماعية وأحد أسرع الصناعات نموا؛ إذ أصبحت تعرف بأنها الصناعة الأولى في العالم، وأداة فعالة لتحقيق التنمية المستدامة وتلعب دورا أساسيا في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ فهي بمثابة مصدر دائم لا ينضب إذا ما توفرت لها الشروط اللازمة، لقدرتها على جلب مداخيل هامة من العملة الصعبة وامتصاص البطالة وترقية وتطوير وتنمية مناطق بأكملها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، ولهذا فكثير من الدول جعلت من هذه الصناعة أساس وركيزة اقتصادها الوطني. والسياحة تتضمن وفقا لمعيار الغرض أنواع عديدة منها: السياحة الدينية؛ التي تعتمد على الوازع الديني الذي يدفع الإنسان إلى التنقل والسفر، وهي تعد من أقدم أنواع السياحة حيث مارسها الإنسان منذ العصور القديمة بهدف زيارة الأماكن المقدسة للتبرك وإشباع العاطفة الدينية.

ومنطقة الزاب تزخر بالعديد من المواقع والعمائر الدينية الإسلامية الأثرية التي لها أهمية كبيرة لمكانتها السامية وقدسيتها لدى كل مسلم.

ومن هذا التقديم تظهر الإشكالية التي سنحاول معالجتها في التساؤل التالي:

ماهي أنواع العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب ؟ وما هي متطلبات توظيفها في تنمية السياحة الدينية ؟

سنحاول مناقشة هذه الإشكالية في مقالنا هذا من خلال المحاور التالية:

I ـ التعريف بمنطقـــة الزاب

II ـ أنواع العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب

III ـ متطلبات توظيف أنواع العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب في تنمية السياحة الدينية

IV ـ خاتمـــة

I ــ التعريف بمنطقــة الزاب

سنحاول في تعريفنا بمنطقة الزاب التركيز على أصل ومدلول مصطلح الزاب ثم تقديم المنطقة من خلال موقعها الجغرافي وجانبها التاريخي.

1 ــ مدلول الزاب وموقعه الجغرافي

أ ــ مــدلــول الــزاب

الزاب كمصطلح يستعمل في المشرق العربي للدلالة على زاب الموصل بالعراق وهو عبارة عن واديان ينبعان من جبال الأكراد أحدهما الزاب الأصغر بين الموصل وإربل والثاني الزاب الأكبر بين إربل وكركوك وكلاهما من روافد دجلة [1]، وفي المغرب العربي يستعمل للدلالة على المنطقة التي كانت تمثل نوميديا أو بمعنى أوسع موريطانيا السطيفية كإقليم في إفريقيا في العهد الروماني حيث كانت مركزا للفرقة الرومانية الثالثة (Legio) III المكلفة بالإشراف على سلامة محصول القمح الوفير ومراكز زراعة الزيتون، وهذه الحصون حولها العرب إلى مدن مثل الزاب (Zabi) الإسم الذي أصبح يطلق على كل إقليم سطيف (Sitifis) وتيمقاد(Thamugadi) وسوق أهراس(Bullo Regea) وباغاي(Bogai) ومسيلة وبسكرة وبادس....الخ، وكل هذه المنطقة أصبحت تعرف بالزاب بعد الفتح الإسلامي وبحدود واسعة تشمل إقليم القبائل وإقليم ورسنيس إلى جنوبه ثم منطقة جبال الأوراس والشطوط مثل شط الحضنة وشط ملغيغ، أما حدود الإقليم الغربية فهي مجرى نهر الشلف.

وتسمية الزاب مشتقة من مدينة (Zabi) وهي حصن روماني في منطقة الحضنة التي تعرف حاليا بالمسيلة[2]، وإقليم الزاب ذكر من قبل الكثير من الجغرافيين والرحالة أشهرهم الجغرافي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي المتوفي سنة 284هــ897م الذي يقول: أن الإقليم الثالث من ولاية إفريقيا هو الزاب إضافة إلى طرابلس وإفريقية؛ فالزاب عنده بلاد واسعة تتضمن مدنا وأقاليم شتى قاعدتها طبنة ويذكر من المدن: باغايا، تجيس، ميلة(يتبعها جزء كبير من الساحل مراسي جيجل وقلعة خطاب وسكيكدة)، سطيف، بلزمة، نقاوس، طبنة، مقرة، ومدينة أربة " [3].

واليعقوبي لم يبين حدود الإقليم بدقة لأنه يقول آخر مدن الزاب في الغرب هي: **أزبــة:** وهي قريبة من المسيلة التابعة لإمارة بني الأغلب التي كانت تمتد حتى مجرى واد الشلف

غربا، أما ابن خلدون فيبين حدود الزاب من : " قصر الدوسن بالغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحضنة جبل جاثم من المغرب إلى المشرق ذو ثنايا تفضي إليه من تلك الحضنة وهو أبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة، يعمر ذلك الجبل في محاذاة الزاب من غربيه ببقايا عمرت من زناتة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس، المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الشمال، ويقول أنه متكون من عدة قرى يطلق عليها كلها اسم الزاب: أولها زاب الدوسن ثم زاب طولقة ثم زاب أمليلي وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس، وبسكرة أم هذه القرى كلها " [4].

والزاب اليوم هو امتداد غير فسيح عند سفوح الجبال الفاصلة بين سهول الحضنة والصحراء أي المنطقة التي حول بسكرة بطول 125 ميل تقريبا من الغرب إلى الشرق وما بين 30 و40 ميل من الشمال إلى الجنوب وهي عبارة عن سهل منبسط يتلاشى شيئا فشيئا في الجنوب؛ ويقسم إلى ثلاثة أقسام متصلة متقاربة: هي الزاب الظهراوي أو الشمالي بين تلال الزاب ووادي جدي من قراه طولقة، البرج، ليشانة، بوشقرون، فارفار، فوغالة، العامري، ثم الزاب القبلي أو الجنوبي يفصله عن الشمالي شريط من الأرض الرملية وسبخات ويضم قرى: مليلي، ليوة، الصحيرة، مخادمة، بنطيوس، أورلال، أوماش، الدوسن، أولاد جلال، سيدي خالد، والقسم الثالث هو الزاب الشرقي بين سفح تلال الأوراس وشط ملغيغ من قراه سيدي عقبة أو تهودة، شتمة، الدروع، سيدي خليل، سيدي ناجي، زريبة حامد، زريبة الواد، ليانة، بادس[5].

ب ــ الموقع الجغرافي لمنطقة الزاب

يقع الزاب على خط عرض ما بين 34° و 30 دقيقة، إلى 35° شمالا وخطي طول 2° إلى 3° شرقا، يحده شمالا التلال الجنوبية لجبل أحمر خدو (جبل زرزور) وجبال الأوراس وسلسلة تلال بوغزال التي تفصله عن سهل لوطاية ثم جبال الزاب وقممها الأساسية مثل جبل موديان، شعيمة، بوكراصباحنا، والدخان، وفي الغرب تستمر السلسلة الجبلية بقممها المرتفعة وتبدأ من جبل الدخان إلى غاية وادي جدي فاصلة إقليم الزيبان عن إدارة عمالة الجزائر العاصمة وباقي المناطق في الدائرة، في الجنوب خط وهمي إداري يقسم المنطقة الواسعة المحصورة بين وادي جدي ووادي التل، هذا الخط يرتكز

من جهة على وادي جدي ومن جهة أخرى على شط ملغيغ، الذي في جوانبه الشمالية الغربية والشمالية تستمر الحدود الجنوبية، وأخيرا في الشرق الحدود مقطوعة مجزأة في سهل كبير يمتد بين جبل أحمر خدو والشط وهو يشتمل على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية[6] ، تقدر مساحة إقليم الزيبان بـــ 464,087 هكتار، ويقسم طبيعيا إلى ثلاثة مناطق:[7]

المنطقة الأولى: توجد في الشرق وهي على شكل مسرح مفتوح يحدها من الشمال والجنوب سلسلتين جبليتين متوازيتين تلتقيان في الغرب بينهما منطقة بها أراضي مستوية خصبة.

المنطقة الثانية: تقع في الجنوب تحتلها واحات الزيبان، وهي منطقة واسعة تنتهي عندها سفوح جبال الزاب، محمية شمالا من الرياح الباردة بمرتفعات تساعد على إيجاد ظروف حرارية قريبة من مثيلاتها في وادي ريغ، تحتوي على طبقة هامة من المياه الجوفية وهي خصبة صالحة لزراعة النخيل.

المنطقة الثالثة: جد قاحلة وهي بمثابة السواحل الجنوبية للمغرب تتكون من سهول حجرية وأخرى رملية تعرف نقصا كبيرا في المياه، عندما تتأخر أمطار الفصول الباردة لا يوجد مصدر لسقي الأراضي، فالأمطار تكون في الفترة الممتدة ما بين شهر نوفمبر وشهر ماي، مما يؤدي إلى ارتفاع منسوب مياه الأودية وفيضانها، لكن بارتفاع درجة الحرارة ينخفض منسوب المياه وغالبا ما تجف، لذلك نباتها قليل يتمثل في بعض الجذور الجافة.

وفي كل منطقة من هذه المناطق نجد فئة من السكان ذات خصائص متميزة، ففي منطقة الواحات يعيش سكان مستقرون يمارسون حرفة الزراعة والتجارة، والمنطقتين الأخرتين نجد سكان البدو الرحل الذين يمتلكون العديد من قطعان الغنم ويعيشون وماشيتهم في الأراضي الرعوية.

2 ــ الجانب التاريخي لمنطقة الزاب

تدل الآثار المادية المتمثلة في مستحثات وحجارة مقلمة التي عثر عليها بنواحي شتمة أن تاريخ المنطقة يعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل(عصور ما قبل التاريخ)، وكذلك بعض الآثار التي تعود إلى الحضارة العاترية والقفصية أي العصر الحجري القديم

الأوسط، أما العصر الحجري الحديث تمثلت آثاره في رؤوس السهام الصحراوية، وبالنسبة لفجر التاريخ فقد عثر على العديد من قبور البازيناس المدرجة بعين الحمارة بالقرب من أولاد جلال ورسوم صخرية بجبال أولاد نايل [8]، وفيما يتعلق بالسكان الأوائل للمنطقة فإن الرأي المقبول عموما، أنهم من الليبيين والجيتول، وفي فترة غير معروفة شكل حلف بين الميديين والفرس والأرمن الذين غزو أراضي الأطلس، واختلط الفرس مع السكان الأوائل في السواحل وشكلوا شعب نوميديا وتزاوج الميديين والأرمن مع الليبيين وأنجبوا السلالة المورية، لكن نسبة كبيرة من الجيتول تمركزت في وديان الأطلس الكبير ورفضت أي تحالف وشكلت النواة الأساسية لهذه القبائل، أما عن أصلهم فالمعلومة الوحيدة المتوفرة أنهم ينحدرون من إيفيلوس (Hévilus) ابن شوس (Chus) قائد الأثيوبيين [9].

* **الفترة القرطاجية:** خلال السيطرة القرطاجية على شمال إفريقيا لم تخضع مملكة جيتوليا بصفة دائمة لسيطرة هؤلاء، لأن الجيتول كانوا يرفضون سيطرة الفنيقيين والإندماج مع هؤلاء الغزاة، إلا أنهم تأثروا بمظاهر حضارتهم خاصة ممارستهم الزراعة والتجارة حيث أقاموا العديد من الطرق التجارية بين الصحراء والساحل، نسجل أيضا وجود العديد من الجيتول كجنود مرتزقة في الجيش القرطاجي [10].

***الفترة الرومانية:** ما يذكر حول منطقة الزيبان في العهد الروماني أنها لم تخضع لسيطرة رومانية مباشرة بل كانت مخبأ للبربر الفارين من السلطة الأجنبية، وملجأ يوغرطا بعد معاركه للإستراحة والتزود بالجنود وما يلزمهم، الشيء الذي أدى بالرومان إلى إكتشاف أهمية وإستراتيجية المنطقة وبالتالي ضرورة إحكام قبضتهم عليها، وتسنى لهم ذلك بإقامة مراكز حراسة للممرات والطرق التي تنطلق من جبال الأوراس نحو الجنوب فأقاموا مجموعة من الحصون والقلاع التابعة لخط الليمس[11]؛ منها حصن بالقرب من وادي طاقة وثلاثة حصون أخرى بين جبل محمل و وادي عبدي وجبل الأبيض، وفي جنوب قلعة تقسرين ومنعة في ملتقى وادي عبدي وواد عمار، وباتجاه بسكرة قلعة البرانيس التي تقوم بحراسة المصب الجنوبي للوادي [12]، وقد تمت السيطرة على القنطرة (Calceun Herculis) والطريق الذي يربط تازولت (Lambaesis) ببسكرة (Vescera) وبمليلي (Gemellae) واحتلوا منطقة وادي جدي عسكريا وأقاموا على

ضفافه العديد من الحصون التي مازالت أطلالها قائمة؛ مهمتها حراسة ممرات الوادي والطريق الذي يربط بين بسكرة وأولاد جلال، ويظهر لحد الآن موقع محصن يرتفع في جبل أحمر خدو بالقرب من المنطقة المسماة حاليا كيمل(Kimel)،هذه القواعد يمكن اعتبارها مراكز الحراسة الأولى لخط باتنة(Lambasis)، خنشلة(Mascula)، تبسة(Théveste)، وعند مصب وادي الأبيض أنشئت تهودة(Thabudéos) أين عثر على العديد من الآثار التي تعود إلى الفترة الرومانية، وفي منطقة واد عبدي التي كانت محمية من طرف بسكرة عثر في الجهة اليمنى للوادي على بقايا قلعة وبئر بعمق 20م، وعلى نقيشة أثرية تبين أن المنطقة كانت محروسة في القرن الثالث من قبل جزء من قوات نوميروس بالمرونروم(Numerus Palmyrenorum) التي كانت رابضة بالقنطرة، ومركز آخر متواجدا بلوطاية لم يبقى منه أي أثر، ويمكن القول أنه بفضل هذه المراكز الجد محصنة تمكن الرومان من تفادي إندلاع ثورة كبيرة في الجنوب ومنطقة الأوراس، فمدينة خنشلة(Mascula) مثلا أنشئت من أجل تسيير ومراقبة الطريق من قسنطينة إلى وادي سوف ولقد عثر في غدامس (Gdames) على كتابات أثرية تدل على عبور الرومان لهذه المناطق وأنهم تجولوا بكل الصحراء التي تمت إدارتها عن طريق القواعد والحصون العسكرية [13].

* الفترة الوندالية والبيزنطية: بعد إحتلال روماني طويل لإفريقيا دام أكثر من600 سنة، جاء دور الوندال الذين تمكنوا خلال أشهر قليلة من القضاء عن هذه السيطرة والاستيلاء على كل إفريقيا الرومانية بداية من عام 429م، في هذه الفترة كانت هناك العديد من الإضطرابات والثورات الداخلية [14]، لكن لا نجد في التاريخ شيء مميز وخاص بمنطقة الزيبان، خاصة وأن الإحتلال الوندالي كان يفتقر للتنظيم والتماسك وانعدام المؤسسات العسكرية واستخدام قوات من إفريقيا، لذلك غزوهم لم يتعدى حدود الأوراس، بل يمكن القول أن هذه المنطقة (الأوراس) لم تخضع أبدا لسيطرة كاملة، حتى أنه في عهد هوميروك (Humeric) ابن جنزريك(Genséric) أعلنت نفسها مستقلة، ونفس الشيء ينطبق على منطقة الزاب، ولقد أشار بروكوك(Procoque) إلى أسماء زعماء من الأهالي حكموا المنطقة في فترة وصول بليزار(Bélisaire) إلى إفريقيا، على رأسهم

أورطياس(Orthaiss) الذي كان يسير منطقة الحضنة وبلزمة والزاب، ولا نجد مراجع ولا وثائق ولا آثار تبين تأثير السيطرة الوندالية والبيزنطية على منطقة الزاب[15].

* **الفترة الإسلامية:** مع بدايات الفتح الإسلامي لإفريقيا في عهد عثمان بن عفان، كانت هذه الأخيرة تحت سيطرة الحاكم البيزنطي جريجوريوس المعروف عند العرب بـــ (جرجير) الذي هادن البربر[16] ، فكانت الحملة الأولى عام 27هـــ648م بقيادة عبد الله بن أبي سرح أين تفوق المسلمون على البيزنطيين بمدينة سبيطلة بالجنوب الغربي لتونس لتكون حملة ثانية سنة 45هـــ665م بقيادة معاوية بن حديج الذي فتح بنزرت وجزيرة جربة لتأتي حملة عقبة بن نافع الفهري مؤسس القيروان سنة 50هـــ670م، ثم حملة أبو المهاجر دينار سنة 55هـــ675م فاتح المغرب الأوسط لتكون الحملة الثانية لعقبة بن نافع سنة 62هـــ682م حيث تم نشر الإسلام في منطقة الزاب، وكانت نهاية عقبة بن نافع سنة 63هـــ683م بتهودة إحدى مدن الزاب ليسيطر كسيلة بن لمزم على منطقة الزاب والأوراس، ورغم الإضطرابات التي كانت تعرفها الخلافة الأموية إلا أن الخليفة عبد الملك بن مروان ولى زهير بن قيس البلوي أميرا على إفريقيا سنة 69هـــ688م فأنتقم لعقبة بن نافع بقتل كسيلة سنة71هـــ690م، ليستمر الفتح على يد حسان بن النعمان[17] الذي واجه الكاهنة، وتمكن منها سنة 88هـــ701م. ويتم الفتح الإسلامي لمنطقة الزاب ويصبح من القلاع الإسلامية الهامة خاصة في عهد الأغالبة، حيث كان الزاب الأغلبي يرادف نوميديا القديمة تحت قيادة الأغلب بن سالم التميمي ثم إبنه إبراهيم[18] ليدخل الزاب فيما بعد تحت الحكم الحمادي ويتعرض بعدها لغزو الأعراب ويشهد التخريب والتدمير على أيديهم، ثم الحكم الموحدي لتأتي فترة الحكم العثماني بداية من القرن السادس عشر ليستمر مدة ثلاثة قرون، حيث كانت كل قبيلة أو قرية من قرى الزاب تسير من قبل الشيخ وكان القائد وشيخ العرب يستقران ببسكرة وهما ممثلا الباي، وكانت أسرتي بوعكاز وبن قانة تتداولان على تمثيل السلطة العثمانية، ومما يذكر للأتراك في المنطقة خاصة في عهد صالح باي قيامهم بتنظيم السقي (المياه) وحث الناس على ممارسة الزراعة [19] لينتهي عهدهم بدخول الإحتلال الفرنسي.

II ــ أنواع العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب

تزخر منطقة الزاب بمجموعة من العمائر الدينية الإسلامية الأثرية؛ مميزة بطرز معمارية مختلفة تتمثل في:

1 ــ المساجــد والزوايا الأثرية بمنطقة الزاب

أ ــ المساجــد الأثرية بمنطقة الزاب

يوجد بمنطقة الزاب مساجد أثرية هامة منها ما اندثر نهائيا ومنها ما هو في طريق الإندثار ولو جزئيا، البعض منها يعود إلى فترة قديمة والبعض الآخر إلى فترات متأخرة نذكر منها:

جامع سيدي عقبة الموجود بمدينة سيدي عقبة الحالية (تهودة قديما) ويعتبر أقدمها، فهو يعود إلى القرن الثاني هجري الثامن ميلادي؛ حالته جيدة بعد الترميمات والتوسيعات التي عرفها في عدة مرات، و**جامع سيدي موسى الخذري** بعاصمة منطقة الزيبان حاليا بسكرة، و**مسجد سيدي عيسى** ببوشقرون و**الجامع العتيق** بأولاد جلال اللذان تهدما اثر الفيضانات التي عرفتها المنطقة سنة1389هــ1969م ولم يبق سوى مئذنتيهما بالإضافة إلى صور تذكارية محفوظة في كتاب المساجد في الجزائر[20]، و**المسجد العتيق بالدوسن** الذي مازال قائما، و**مسجد سيدي الحافي** الذي يقع بالقرب من جامع سيدي عقبة؛ حالته سيئة، و**الجامع العتيق** ببرج بن عزوز الذي يعود إلى العهد العثماني، ولعلى أول ملاحظة يمكن تسجيلها على مساجد منطقة الزاب بساطتها الهندسية التي تذكرنا بجامع الرسول **صلى الله عليه وسلم** بالمدينة المنورة، والملاحظ أن كل المساجد السابقة تحتوي على مئذنة مربعة تضيق كلما ارتفعت، بها فتحات صغيرة لإنارة السلم الداخلي، مواد بنائها محلية تعكس مدى أصالتها وتميزها[21]؛ تقوم على جذوع النخل وأعمدة من الخشب وجدرانها من اللبن وفي البعض منها الحجر.

ب ــ الــزوايــا الأثرية بمنطقة الزاب

عرف المغرب الأوسط ظهور الزوايا على غرار بقية مناطق المغرب الإسلامي؛ وكانت بمثابة معاهد لتعليم وتنوير العامة ورباطات جهادية ضد الأعداء، وبناء الزاوية يختلف عادة عن بناء المسجد والمدرسة فهي كثيرا ما تجمع بين هندسة المسجد والمنزل، وإذا

كان للزاوية مسجدا فإنه في الغالب بدون مئذنة، كما توجد قاعة للدرس وغرف للطلبة ومكان للطبخ وآخر لاستقبال الضيوف [22]، ومن زوايا منطقة الزاب:

زاوية محمد بن عزوز البرجي ببرج بن عزوز التي اندثرت بإنتقال أحفاده إلى نفطة بتونس ولم يبقى منها إلا ضريحه، و**زاوية عبد الرحمان الأخضري** ببنطيوس التي كان لها نفس المصير، و**زاوية خنقة سيدي ناجي** التي مازالت قائمة لكن كأطلال ما عدا مسجدها الذي مازال يستغل للعبادة، ومن الزوايا التي لا زالت قائمة وتجسد معالم حضارية وثقافية مميزة للمنطقة نذكر: **زاوية علي بن عمر** الطولقي(الزاوية العثمانية) و**زاوية الشيخ المختار** الجلالي (الزاوية المختارية).

2 ــ الأضرحـــة الأثرية بمنطقة الزاب

انتشرت الأضرحة في منطقة الزاب، فهي إما أضرحة لمؤسسي الزوايا الدينية أو أضرحة للأولياء الصالحين، وما يميز بعضها أنها عبارة عن مساجد مأتمية صغيرة سقوفها من أخشاب النخيل، بها أقواس بسيطة وركائز متينة، جدرانها سميكة بزوايا خالية من كل حدة، تشتمل على قباب مختلفة الأشكال منها المخروطي والمخروطي الحاد أو على شكل قوس منكسر أو نصف كروي، تنتهي جدرانها في كل زاوية بشرفات متدرجة أو ما اسماها جورج مارسي بالهرم المقطوع [23]؛ نذكر منها:

ضريح (قبة) سيدي مبارك بن قاسم بن ناجي، بخنقة سيدي ناجي، و**ضريح سيدي حسان بن كوفي** الذي تعود أصوله إلى منطقة الحجاز وهو شخص ذو كرامات حيث يقال أنه أعاد جريان المياه في وادي العرب الجاف في معظم الأوقات، وفي منطقة الحوش وعند مصب وادي جدي في شط ملغيغ نجد **أضرحة سيدي بوناب** و**سيدي بومسعود** و**سيدي دحمان** و**سيدي محمد الصالح** وكلها ذات قبة بشكل مخروطي حاد، وفي منطقة سيدي عقبة نجد قبة نصف كروية فوق **ضريح عقبة بن نافع**، وفي وادي بسكرة نجد قبتين بنفس الشكل إحداهما في الجهة اليسرى للوادي على **ضريح ولي العالية** والثانية في الجهة اليمنى للولي الصالح **سيدي زرزور**، نفس الطراز يتكرر في ضريحي **سيدي غزال** و**سيدي لحسن** الموجودان جنوب وادي ببسكرة، أما **ضريح أبو الفضل** فهو ينتهي بقبة على شكل قوس منخفضة قريبة من الشكل النصف كروي.[24]

وفي منطقة الزاب الغربي نجد **ضريح سيدي مغزي**، وفي فارفار ضريح بقبتين واحدة ذات شكل مخروطي حاد والثانية قريبة من الشكل النصف كروي، الأولى تغطي الضريح والثانية تغطي القاعة التي تتقدمه، وفي شمال شرق طولقة نجد **ضريح سيدي رواق** ذو القبة المخروطية؛ وفي البرج وفوغالة نجد أضرحة **سيدي رحال** و**سيدي العمري** و**سيدي تازمور** و**سيدي العلوي**؛ وفي الزاب القبلي مليلي وضواحيها نجد **ضريح سيدي عبد الرحمان** الصغير بن لخضر(عبد الرحمان الأخضري) و**سيدي عثمان**، وفي أولاد جلال مجموعة من الأضرحة بقبب مخروطية الشكل منها **ضريح سيدي لخضر** و**سيدي الصالح**؛ وفي سيدي خالد نجد ضريح مميز على الضفة اليمنى لوادي جدي وهو **ضريح النبي خالد**[25].

نصل إلى القول أن أضرحة منطقة الزاب بسيطة في بنائها؛ تتكون إما من غرفة واحدة مغطاة بقبة وإما من غرفتين، غرفة الضريح وغرفة تتقدمها بمثابة صحن للضريح قد تكون مغطاة بسقف مستوي أو قبة منخفضة أو مكشوفة، وغالبا ما تطلى أضرحة الزاب بالجير الأبيض، ومواد بنائها بسيطة ومحلية ويوجد تشابه كبير بينها وبين أضرحة منطقة الجريد خاصة نفطة في الجنوب التونسي[26] ، ويرى جورج مارسي أن هذه الأشكال وصلت إلى الجزائر عن طريق تنقل البدو الرحل وعلاقتهم بالدول المجاورة خاصة مصر والسودان أين يوجد الكثير منها.

III ــ متطلبات توظيف أنواع العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب في تنمية السياحة الدينية

قبل التطرق إلى متطلبات توظيف أنواع العمارة الدينية الإسلامية الأثرية بمنطقة الزاب في تنمية السياحة الدينية، نرى بضرورة التعريف بكل من السياحة والتنمية السياحية ثم السياحة الدينية ومراحل تنميتها كمايلي:

1 ــ السياحة الدينية ومراحل تنميتها

أ ــ تعريف السياحة الدينية

بداية نقول أن مفهوم السياحة يعود إلى كلمة رحلة (Tour) المشتقة من الكلمة اللاتينية (Torno)، وقد أستخدم المفهوم (Tourism) أول مرة سنة 1643 ليدل على السفر أو التجوال من مكان إلى آخر[27]، والسياحة لغة يقصد بها: التجول؛ يقال جال في البلاد للتنزه

أو التفرج أو غير ذلك [28]، أما اصطلاحا يقصد بها: " ذلك النشاط الإنساني الذي يتعلق بالحركة والتنقل، يقوم به الفرد أو مجموعة من الأفراد بغرض الانتقال من مكان إلى مكان آخر لأسباب اجتماعية ترفيهية، قضاء إجازات، حضور مؤتمرات ومهرجانات، العلاج، وليس بغرض العمل والإقامة الدائمة " [29]، فالتنقل أو السفر يعتبر سياحة إذا كان تنقلا طوعيا غير إجباري ومؤقتا غير دائم ولا يهدف إلى نشاط ربحي أو بحث عن عمل.

والسياحة أنواع منها السياحة الدينية التي تمثل مصدرا هاما ومتجددا من مصادر السياحة؛ وتعرف على أنها: " **انتقال السياح من أماكن إقامتهم إلى هذه المعالم (المعالم الدينية) بهدف القيام بزيارات ورحلات دينية لإشباع العاطفة الدينية والتبرك بها وتحقيق الاستشفاء الروحي والنفسي** " [30]؛ أي زيارة الأماكن الدينية للتبرك بها أو للحج أو لأداء واجب ديني أو للتعرف على التراث الديني لبلد ما.

ب ــ مراحل تنمية السياحة الدينية

بداية نقول أن التنمية السياحة يقصد بها: " توفير التسهيلات والخدمات لإشباع حاجات ورغبات السياح، وتشمل كذلك بعض تأثيرات السياحة مثل: إيجاد فرص عمل جديدة ودخول جديدة " [31]؛ فهي تتجسد في: "الإمداد بالتسهيلات والخدمات أو الارتقاء بها لمقابلة كافة احتياجات السائحين" [32]؛ كما تظهر التنمية السياحة في:" الارتقاء والتوسع بالخدمات السياحية واحتياجاتها، وتتطلب...التخطيط السياحي باعتباره أسلوبا علميا يستهدف تحقيق اكبر معدل ممكن من النمو السياحي بأقل تكلفة ممكنة وفي أقرب وقت مستطاع " [33].

واسقاطا نقول أن تنمية السياحة الدينية يقصد بها: توفير مختلف التسهيلات والخدمات اللازمة لإشباع حاجات ورغبات السياح.

ب ــ مراحل التنمية السياحية: تتقسم مراحل تنمية السياحية الدينية كغيرها من أنواع السياحة وفقا لنماذج عديدة، منها نموذج " **ميوسيك**" الذي يقسمها إلى: [34]

1ــ **مرحلة الاكتشاف:** ويتم فيها اكتشاف القدرات والمقومات السياحية للمقصد السياحي.

2ــ **مرحلة النمو:** وفيها يبدأ تطوير الموارد السياحية بشكل تدريجي.

3ــ **مرحلة الانطلاق:** وفيها تقوم الدولة بتطبيق مبدأ التخطيط والتوسع السياحي.

4ــ **مرحلة النضج:** وفيا تظهر المنطقة المستهدفة على الخريطة السياحية، حيث تتكامل الأنشطة السياحية في المنطقة من خلال توفر عناصر الجذب السياحي والتسهيلات اللازمة.

ويؤخذ على هذا النموذج عدم اهتمامه بالجانب الاجتماعي المصاحب للنمو السياحي كونه لم يخصص مرحلة يتناول من خلالها التكيف الاجتماعي للمنطقة السياحية، زيادة أنه توقف عند مرحلة النضج السياحي ولم يحلل العوامل السلبية التي قد تؤدي إلى توقف النمو وعدم استمراره وبالتالي احتمال دخول المنطقة السياحية مرحلة التدهور والانحدار نتيجه توجه السائحين إلى مناطق سياحية منافسة، ومعالجة لهذا النقص جاء نموذج " **بيتلـــر**" الذي يشبه مراحل دورة حياة المنتوج، حيث قسم مراحل التنمية السياحية إلى: [35]

1ــ **مرحلة الاكتشاف:** حيث يتم اكتشاف المنطقة السياحية الجديدة.

2ــ **مرحلة المشاركة:** وتظهر من خلال تزايد إقبال مجموع السياح إلى المنطقة السياحية، حيث تظهر مجموعة من الخدمات والتسهيلات التي تدفعهم إلى الاشتراك في نفس الأشياء سواء مع بعضهم البعض أو مع السكان المحليين.

3ــ **مرحلة التطور والنمو:** وتسمى بمرحلة الانطلاق؛ وفيها يتم توفير الخدمات والتسهيلات اللازمة بشكل مكثف للسائحين وأعدادهم المتزايدة، وتعتبر هذه المرحلة من أخطر المراحل التي تمر بها التنمية السياحية من حيث تأثير السياحة على البيئة وما يمكن أن ينتج عنه من تدمير للعناصر الأساسية للجذب السياحي بالمنطقة.

4ــ **مرحلة النضج:** تأتي مرحلة النضج هذه إذا استمر النمو السياحي مع تحقيق مبدأ التوازن.

5ــ **مرحلة الثبات والركود:** وهي مرحلة الجمود حيث لا تشهد المنطقة السياحية تدفق أعداد متزايدة من السياح ويتوقف فيها النمو عند حد معين من السياح.

6ــ **مرحلة التدهور أو التجديد:** وفي هذه المرحلة إن لم تدعم المنطقة بمظاهر تنموية جديدة فإن التنمية ستتجه حتما نحو الانحدار والتدهور لتوجه السائحين إلى مناطق سياحية أخرى منافسة أو جديدة تتوفر فيها كافة المقومات السياحية التي تشبع رغباتهم ودوافعهم، وهذا ما يدفع إلى ظهور اتجاه آخر نحو التجديد والتحديث، بمعنى أن تقوم تنمية سياحية

جديدة بالمنطقة تعتمد على مقومات حديثة تشبع الحاجات والرغبات المتجددة للسياح الذين يبحثون دائما على ما هو جديد.

لذلك نقول أن الإدارة السليمة للنشاط السياحي في كافة مراحل التنمية تسعى دائما إلى تجنيب المنطقة السياحية مرحلة الإنحدار والتدهور، بل تعمل جاهدة لتوفير مختلف المتطلبات لنقلها إلى مرحلة جديدة لضمان تنميتها المستدامة.

2 ــ متطلبات توظيف العمارة الدينية الإسلامية الأثرية في تنمية السياحة الدينية بمنطقة الزاب

نعتقد أن منطقة الزاب التي تنتشر فيها كما سبقت الإشارة عمائر دينية مختلفة من مساجد أثرية وزوايا وأضرحة، كما تحتضن رفاة ما يزيد عن 314 من الفاتحين على رأسهم الصحابي بالمولد: عقبة بن نافع الفهري والقائد أبو مهاجر دينار وأضرحة أولياء الله الصالحين الذين عاشوا ودفنوا في أرضها، وكلها مزارات دينية يمكن استغلالها من أجل تنشيط السياحة الدينية لتصبح منطقة الزاب قطب جذب سياحي، ونرى من أجل تحقيق ذلك أنه يتطلب بالضرورة:[36]

ــ العناية بهذه المعالم والاهتمام بصيانتها ونظافتها والمحافظة على قداستها وأهميتها الدينية والتاريخية.

ــ تعيين فريق مختص يعمل على تجهيز هذه المعالم الأثرية سياحيا والإشراف على إدارتها.

ــ إصدار النشرات والكتيبات الإعلامية التي تتضمن معلومات عن التراث الديني بالمنطقة لشد اهتمام السائحين وانتباههم مع تركيز وسائل الإعلان والتسويق السياحي على هذا النوع من السياحة.

ــ توفير كل الخدمات والتسهيلات والمرافق الضرورية من شبكات الطرق والمواصلات والمياه والصرف الصحي والكهرباء والهاتف والفنادق السياحية والاستراحات والمطاعم والمتاجر ومكاتب وكلاء السياحة والسفر وساحات عامة ومناطق تخييم والتي يجب أن تكون تصميماتها تنسجم وتتناغم وطبيعة هذه المواقع الدينية بل تنسجم مع المنطقة الصحراوية التي توجد بها، وفي نفس الوقت لا تحجب هذه المرافق الموقع الأثري أو تشوهه بل يجب أن تحافظ عنه وعن خصوصيات المنطقة ككل.

ـ إنشاء أماكن قريبة من هذه المعالم الأثرية تخصص للحرفيين المهتمين بالصناعات التقليدية بما يمكن من عكس الطابع المميز للمنطقة.

ـ وضع ونسخ مجسمات صغيرة لمختلف معالم هذه العمارة ليتمكن السائح من اقتنائها كتذكار للمنطقة.

ـ إبراز الخصائص التاريخية والثقافية والجمالية التي تميز مختلف هذه المواقع الدينية بما يمكن من جلب السائح.

ـ وضع لوحات دلالية تأخذ بيد السائح وتوضح له مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها مختلف هذه العمارة الدينية.

ـ الاهتمام والتركيز على السياحة الدينية كأحد أهم أنواع الأنشطة السياحية من حيث الاهتمام بوسائل الإعلان والتسويق السياحي، ويتحتم هنا تعاون جميع الجهات المسؤولة عن تنشيط هذا النوع من السياحة، كما يتحتم استغلال وتثمين الرغبة لدى غالبية الأفراد لزيارة مثل هذه المواقع سعيا لإشباع حاجياتهم الروحية.

ـ تنظيم رحلات دورية إلى مختلف المعالم والمواقع الدينية لصالح تلاميذ المدارس والثانويات من أجل تعريفهم بتاريخ المنطقة وتنمية الوعي بأهمية التراث المادي لديهم وإدراج مادة الآثار ضمن المناهج الدراسية.

الخاتمـــة

تتجسد السياحة الدينية بشكل عام في تنقل السياح من أماكن إقامتهم إلى معالم وعمائر دينية معينة بهدف الزيارة للحج أو لأداء واجب ديني أو للتبرك وإشباع العاطفة الدينية وتحقيق الاستشفاء الروحي والنفسي أو للإطلاع والتعرف على التراث الديني لبلد أو منطقة ما، لأن العمارة الدينية الأثرية الإسلامية بمختلف أنواعها هي عمارة تنعش الذاكرة التاريخية وتذكر بماضي الأمة ومنجزاتها المتنوعة.

ومنطقة الزاب تزخر بعمارة إسلامية أثرية أصيلة نابعة من تفاعل الإنسان مع بيئته؛ وهي متنوعة منها: المساجد، والزوايا، والأضرحة، تعود كلها إلى فترات تاريخية هامة كعصر الفتح الإسلامي والعصر العثماني؛ ولا زال البعض من هذه العمارة يستغل للعبادة أو كمزارات للتبرك وإشباع الحاجات الروحية والعاطفة الدينية زيادة عن إثراء حاضر المنطقة وتنميتها بل حتى لتخطيط وصياغة مستقبلها، ونرى أنه من متطلبات استغلالها

وتوظيفها في تنمية السياحة الدينية ضرورة الاهتمام بها وتزويدها بالتسهيلات الضرورية المناسبة من مختلف المرافق كـــ: شبكات الطرق ووسائل النقل والاتصالات والمياه والصرف الصحي والكهرباء والفنادق والاستراحات والمطاعم والمتاجر وغيرها من الخدمات المختلفة، مع الارتقاء بالمستوى الجمالي والنظافة والأمن وتوفير كل ما يمكن لتدعيم زياراتها حتى تصبح مواقع جذب سياحي تخدم المنطقة وتنميها.

الهوامـــش

[1] ــ أحمد الشناوي وآخرون، مادة الزاب، م10، دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، (ب ت)، ص321.

[2] ــ أنظر :

.حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، ج1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص ص21، 203.

- MAGUELONNE. J, Monographie Géographique et Historique de la tribu DES ZIBAN, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine, V44, ed : adolphe braham, Paris, 1910.

[3] ــ أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، نشر م.ج.جويه، ط2، بريل ليدن، 1892، ص351.

[4] ــ نفس المصدر، ص510.

[5] ــ أنظر: ــ أحمد الشناوي وآخرون، مرجع سابق، ص ص39، 321.

-Delatré. A.L, Excursion dans le ZAB accidental, Recueil des notices et mémoires de le société Archéologique du département de Constantine, V 25, Année 1888-1889, Paris,eedobraham, PP261-278.

- Baradeze. J, Fossatum Africae, ed: Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1949, P329.

[6] - MAGUELONNE. J op.cit, PP 213-214

[7] - Ibid, P215.

[8] ــ محمد الصغير غانم، منطقة بسكرة بين الموقع الإستراتيجي والنصوص التاريخية، مجلة الخلدونية، العدد 2، السنة 2003، مطبعة دار الهدى عين مليلة، رقم الصفحات،17-24، ص17.

[9] ــ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص ص32- 33.

[10] - MAGUELONNE. J, op ;cit,p 223

[11] ــ عبد الله شريط، محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والإجتماعي، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1985،ص ص51،49

[12] ــ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، ج1، الدار التونسية للنشر، 1983، ص ص185- 186.

[13] - MAGUELONNE. J, op ;cit,PP231-232

[14] ــ عبد الله شريط، محمد مبارك الميلي، مرجع سابق، ص ص58- 62.

[15]- MAGUELONNE. J, op ;cit,p233

[16] ــ شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج2، ص16.

[17] ــ عبد الرحمان ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، القاهرة، 1961، ص ص266– 271.

[18] ــ شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج2، ص61.

[19]- MAGUELONNE. J, op ;cit,PP 241-242

[20] ــ المساجد في الجزائر، سلسلة الفن والثقافة، مطبعة التاميرا، مدريد، اسبانيا، 1970 ، ص ص70– 73.

[21] ــ حسين مؤنس، المساجد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1981، ص 198.

[22] ــ ابوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ق10–14هـ، ج1، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص169.

[23] ــ المساجد في الجزائر، مرجع سابق، ص75.

[24] - Cauvet.c, Les marabouts, petits monuments funeraire et votif du nord de l'Afrique, Revue Africaine, N°64/1923,OPU, Alger, PP455-456.

[25] - Couvet. c , op.cit, PP458-459.

[26] - Ibid , P 454.

[27] ــ خالد مقابلة، فن الدلالة السياحية، دار وائل، عمان، 1999، ص18.

[28] - المنجد في اللغة والأعلام، ط26، دار المشرق بيروت، 1972، ص368.

[29] ــ أحمد الجلاد: دراسات في جغرافية السياحة، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص 93

[30] - ماهر عبد الخالق السيسي، صناعة السياحة الأساسيات والمبادئ، مطابع الولاء الحديثة، مصر، 2003، 50.

[31] - نور الدين هرمز، **التخطيط السياحي والتنمية السياحية**، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 28، العدد3، السنة 2006.

[32] - أحمد فوزي ملوخية، **التنمية السياحية**، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2007، ص 44.

[33] ــ مصطفى يوسف كافي، صناعة السياحة كأحد الخيارات الاستراتيجية للتنمية الاقتصادية، دار الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، ص ص 106 ــ 107.

[34] ــ جليلة حسن حسنين، **دراسات في التنمية السياحية**، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص ص20–22

[35] - نفس المرجع، ص ص 23 - 26

[36] ــ راجع:

.صالح بن قربة، **أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته**، دار الهدى، الجزائر، 2011، ص ص 530– 533.

.خالد مقابلة، مرجع سابق، ص 146.